

**Wolfgang G. Schwanitz (Ed), Germany and the Middle East 1871-1945,
Iberoamericana/Vervuert 2004, I-X, 267 pages.**

مراجعة: عبد الرؤوف سنو
الجامعة اللبنانية

تعرضت منطقة "الشرق الأوسط" بين القرن الثامن عشر والقرن العشرين إلى عملية استهداف واختراق من قبل الدول الكبرى. قبل اكتشاف النفط، شكلت المنطقة بالنسبة إلى الغرب سوقاً للمواد الخام وتصريف الإنتاج ونقطة ارتكاز وعبور إستراتيجيتين. وفي المرحلة التالية، تعاضمت أهميتها لوجود النفط فيها والحاجة إليه. وفي كلا المرحلتين، كانت أوروبا والولايات المتحدة الأميركية أكثر اللاعبين نشاطاً وتأثيراً. وقد نتج عن التنافس الدولي اندلاع حربين عالميتين استخدمت فيها وسائل الصراع كافة، ومن ضمنها استغلال الإسلام ورفع شعارات مخادعة حول تحرير الشعوب.

مسرح الكتاب هو الشرق الأوسط بأوسع استخداماته الأميركية. أما اللاعب الرئيسي هنا، فهي ألمانيا. كانت هذه الدولة الأكثر نفوذاً في السلطنة العثمانية ودعمت لسيادتها في وجه مشاريع تقسيمها، والأقوى على صعيد المشاريع والامتيازات في تركيا الآسيوية، وفي المرتبة الثانية بين الدول الدانئة للدولة العثمانية، وفي المركز الثالث من بين الدول المصدرة إليها، وذلك بالتزامن مع استشراق علمي موجه يغذي السياسة والاقتصاد بالدراسات والأبحاث عن المنطقة استمر حتى منتصف القرن العشرين (مساهمة Stefan R. Hauser: علاقة الأبحاث بالمصالح السياسية والاقتصادية). وعقب الحرب العالمية الأولى، سقط معظم الشرق الأوسط تحت وطأة استعمار جديد (الانتداب) أو وصاية أجنبية، فيما عاد الاقتصاد الألماني إلى النهوض، وبدأت ألمانيا تستعيد مركزها الدولي. لكن، الأزمة الاقتصادية العالمية عام 1929 أصابتها ومهدت بالتالي لوصول هتلر إلى السلطة.

ولأن مساحة الدراسة واسعة، زمنياً وجغرافياً، رأى المنسق أن يقتصر كتابه على موضوعات محددة لعدد من الباحثين تبرز المفصلات الأساسية في السياسة الألمانية الشرق أوسطية وتميزه عن كتاب (Jehuda L. Wallach (ed.), Germany and the Middle East 1835-1939 الصادر في تل أبيب عام 1975.

مهد شفانتس للكتاب بدراسة شاملة للمفصلات الرئيسية لسياسة ألمانيا الشرق أوسطية، والتي تضمنت علاقاتها بالدولة العثمانية وبالغرب والمسلمين. بين عامي 1870 و1890، ابتعدت ألمانيا عن المسألة الشرقية وتعقيداتها مركزة اهتمامها على وسط أوروبا (مجالها الحيوي) ومكاسبها من حربها ضد فرنسا. لكن تحولها إلى دولة إمبريالية منذ اعتلاء الإمبراطور وليم الثاني عرش البلاد، جعلها تنغمس أكثر في الصراعات الدولية التي وصلت ذروتها عشية الحرب العالمية الأولى. وبعد

التحالف الألماني - العثماني عقب اندلاع تلك الحرب، أعلنت استانبول "الجهاد المقدس"، وكان هذا "صناعة ألمانية" لتحريض الشعوب العربية والإسلامية ضد دول التحالف. فردت بريطانيا بجهاد "عربي" أعلنه "حليفها" الشريف حسين. وقد أدركت ألمانيا أهمية انضمام الدولة العثمانية وفارس وأفغانستان إليها في جبهة واحدة، تكون فيه أفغانستان رأس حربة لمهاجمة الهند وطرد بريطانيا منها، وتكون فارس الجسر الذي تعبر عليه القوات العثمانية إلى أفغانستان وفي الوقت نفسه نقطة ارتكاز لضرب النفوذ البريطاني في الخليج والعراق. كما أرسلت ألمانيا بعثات إلى كل من العراق وأفغانستان بين عامي 1914 و1915 لحث المرجعيات الشيعية على إعلان الحرب ضد بريطانيا، وعقد تحالف بين برلين وكابول. في المرحلة الأولى، أعلن شيعة العراق الجهاد على بريطانيا، لكنهم عادوا وثاروا على الدولة العثمانية متعاونين مع الإنكليز، فيما فضل أمير أفغانستان الوقوف على الحياد. فأدت هذه العوامل مجتمعة إلى فشل ذريع لألمانيا في تحريض مسلمي تلك المناطق (دراسة Thomas L.Hughes).

بعد الحرب (1919 - 1922)، سارت ألمانيا قدماً للانتقام من معاهدة فرساي، وعملت على ضم الاتحاد السوفياتي وأفغانستان والدولة العثمانية وإيران إلى تحالف بقيادتها لإخراج بريطانيا من الهند. ويعود فشل هذا المشروع إلى تضارب الإيديولوجيا والمصالح السياسية والنفوذ في وسط آسيا بين الإسلام والشيوعية (دراسة Hans-Ulrich Seidt).

ووفق شفانتس، لم يشكل الشرق الأوسط بين الحربين العالميتين أهمية استراتيجية لألمانيا، وإن التقارب الذي حصل بينها وبين السعوديين بين عام 1924 و1939 كان في الأساس لدواع اقتصادية. إلا أن الهيئة التي حصلت عليها ألمانيا النازية على الصعيد الدولي بين عامي 1937 و1939، جذبت إليها انتباه السعوديين، الذين سعوا للاستفادة فقط من التكنولوجيا العسكرية الألمانية والحصول على المساعدات المالية. فما أن اندلعت الحرب العالمية الثانية حتى أعلن العاهل السعودي الحياض مع ميل واضح لبريطانيا، ثم ما لبث أن أعلن الحرب على ألمانيا في شباط 1945.

عشية الحرب العالمية الثانية، حازت المنطقة على اهتمام من قبل ألمانيا، ثم تحولت إلى ميدان صراع عسكري ضد بريطانيا مع فشل تحالفها معها واندلاع الحرب بينهما. ولاحظ شفانتس في دراسته الثانية أن وسائل استغلال ألمانيا للإسلام لم تختلف كثيراً عما كان عليه أثناء الحرب العالمية الأولى، إذ أعلن الحاج أمين الحسيني الجهاد ضد الحلفاء وانضمت الحركة العربية إلى معسكر ألمانيا على أمل أن تلقى مساعدتها في تحقيق الاستقلال بعد الحرب. كما جرى التلاعب بمشاعر العرب ضد اليهود من قبل الساسة الألمان. وقد برز التباين بين السياسة الألمانية الرسمية التي تأخذ في الاعتبار طموحات إيطاليا ومصالحها في المنطقة، والتصورات المعاكسة للدبلوماسيين الألمان. ومن أشهر هؤلاء (Fritz Grobba)، الذي حث حكومته على دعم القومية العربية والتقليل من مراعاتها لمطامع إيطاليا وللهجرة الصهيونية من ألمانيا إلى فلسطين. ورأى أن العرب يؤيدون ألمانيا ضد بريطانيا وفرنسا بسبب إحباطهما مشروعهم القومي أثناء الحرب العالمية الأولى وفرضهما الانتداب عليهم وتأييدهما تهويد فلسطين. إن إعلان الحكومة الألمانية في تشرين الأول 1940 عن تعاطفها مع أماني العرب بالاستقلال، لم يجعلها تبلور استراتيجية عملية لتحقيق ذلك. فلم تستغل الفرصة التي سنحت لها في العراق (انقلاب رشيد عالي الكيلاني) لشن الحرب على مناطق النفوذ البريطاني في الخليج أو قطع طريق الهند. (دراسة شفانتس، فريتس غروبا والشرق الأوسط).

إن التلاعب بمصير العرب وأمانهم القومية لا يتوقف عند حدود المصالح السياسية. لقد أشار الباحث (Gerhard Höpp † 2003-1942) في دراسته إلى أوضاع أسرى الحرب لدى الألمان، وبيّن أن أوضاع الأسرى المسلمين، والعرب من شمال إفريقيا حتى فلسطين وعددهم حوالي 1500 شخص، كانت شديدة السوء، وأنهم لم يحصلوا على معاملة مميزة، وينتمون في الوقت الراهن إلى ضحايا النارية المنسيين. ويقول هوب: "إن استعادة مصير هؤلاء هو مطلب إنساني ومهمة ملقاة على عاتق المؤرخين، الذين عليهم إعادة كتابة مرحلة تاريخ العلاقات بين العرب وألمانيا بين عامي 1933 و1945".

تعالج الدراسة الأخيرة ثلاث محاولات قام بها المبعوث الألماني الخاص إلى تركيا والمقرب إلى هتلر (Franz von Papen) لإخراج تلك الدولة عن حيادها أثناء الحرب العالمية الثانية وتشكيل محور معها تنضم إليه العراق بهدف القضاء عسكرياً على مركز بريطانيا في الشرق الأوسط. حاول بابن، بداية، في خريف عام 1940، أن يقنع حكومته بضم موسكو إلى الحلف الذي يجمعها بروما وطوكيو. لكن، شنّ بلاده الحرب على السوفيات وتوقعه هزيمتهم، جعله يتحول هذا إلى مشروع آخر يقوم على التحالف مع تركيا لقاء إطلاق يدها في القوقاز ووسط آسيا والتضحية بمصالح العرب في المشرق العربي وجعلهم تحت إشراف تركيا. وكان هذا يعني خسارة إيطاليا منطقة نفوذها في المتوسط الشرقي. مرة أخرى، لا يتحقق مشروع بابن، فيركز على استمرار حياد تركيا في الحرب من جهة، ويعمل من جهة أخرى على تجنيد عرب ومسلمين في الجيش الألماني. وجرى استخدام هؤلاء على الجبهة السوفياتية، وفي شمال إفريقيا مع وحدة قتالية عربية شكلها الإيطاليون برعاية المفتي الحاج أمين الحسيني للتصدي للحلفاء في المغرب والجزائر (مقال Karl Heinz Roth).

كتاب شفانتس عمل أكاديمي جاد يستخدم بغزارة المصادر الأساسية وأهمها تلك المحفوظة في دور الوثائق. وهو يطرق موضوعات مهمة جداً، أهمها مسألة نجاح ألمانيا أو فشلها في صياغة إستراتيجية شرق أوسطية. والكتاب هو أولاً وأخيراً بحث في التاريخين السياسي والدبلوماسي، لكن، يغيب عنه تطور السياسة الألمانية تجاه الحركة الصهيونية، وتهود فلسطين وعلاقته بالترانسفير والاقتصاد الألماني، ولا نجد سوى إشارات عابرة لسياسة ألمانيا تجاه الصهيونية وموقع العرب في تلك السياسة. إن مخططات ألمانيا الاقتصادية في المنطقة، في ما لو كسبت الحربين، من الموضوعات المهمة التي يفتقدها الكتاب. أخيراً، لا يتضمن الكتاب خاتمة استنتاجية تربط ما بين موضوعاته.